

المعارض التشكيلية

تيسير البطنيحي *

تقام المعارض التشكيلية في العادة من أجل أن يعرض الفنانون تجاربهم ويتواصلوا مع الجمهور من خلال ما يقدمونه من إبداعات جديدة، سواء كان ذلك في إطار معارض شخصية، أو معارض جماعية تضم ثلاثة أو أكثر من الفنانين. وغالباً ما تعقد الندوات على هامش هذه المعارض، وتدور النقاشات وتبري الأقلام للكتابة عنها متناولة إياها بالنقد والتحليل، وذلك لتوضيح رؤية الفنان وشرح تجربته للجمهور، و ما أراد أن يوصله من خلال أعماله من قيم جمالية ومن أفكار إنسانية وفلسفية وغيره.

إن كل هذا مهم ومهم جداً، سواء كان ذلك للفنان أو للمتلقي لأنه يساعد الأول على فهم ما يقوم به، ووضع تجربته في إطارها الصحيح، ومقارنتها بالتجارب الأخرى، إضافة إلى الاستفادة من الآراء المختلفة حول أعماله، وبالتالي تحسس نقاط الضعف والقوة فيها. كما أن هذا يساعد الثاني، أي الجمهور، على التعاطي مع الأعمال الفنية والتقرب منها وتذوقها، قد لا يفهمها أو يهضمها على نحو تام، ولكنه سيخرج بشيء ما، سيتعرف مع الوقت على الأساليب والاتجاهات المختلفة التي ينتمي إليها الفنانون، وبالتالي اكتساب ذائقة جمالية بتراكم التجربة على قراءة الأعمال الفنية والتميز بين الجيد والرديء منها.

هذا الوعي سيسهم، دون شك، في أداء الفن لرسالته على الوجه الأكمل باعتباره جزءاً من ثقافة وضمير الأمم والشعوب وتوسيع دائرة تأثيره في مجرى حياة الإنسان، بحيث لا يقتصر دوره على إشباع الذائقة الجمالية، فقط أو مجرد التنفيس عن المشاعر والانفعالات، وإنما ليتغلغل في جميع نواحي الحياة.

هذا يقودنا بالتالي إلى الحديث عن الفن والمعارض الفنية في بلادنا والحديث هنا لا يخلو من مرارة، حيث إن الفن والمعارض الفنية والتي تقام هنا وهناك، فردية كانت أم جماعية ما زالت تفتقر إلى الكثير مما تحدثنا عنه ومما سنأتي للحديث عنه فيما بعد، فعلى الرغم من كثرة هذه المعارض والتي ما تنفك تقام كل يوم فإنها لم ولا تترك أي أثر يمكن تتبعه في سلوك وحياة ووعي الناس أو تعاطيهم مع الفن وقضاياها، وهذا في رأيي يعود إلى أسباب عدة متمثلة في:

أولاً: إننا نتهم الجمهور دوماً بالافتقار إلى الوعي الفني، ويرتفع الفنانون في العادة عن الحديث عن أعمالهم أو تقديم رؤيتهم الفنية للجمهور مستترين وراء مواقف عفى عليها الدهر وشرب من قبيل «لكل أن يرى في العمل الفني ما يريد»، قد يكون هذا صحيحاً ولكن على الفنان أن يعرف في الأقل ما يريد، أن تنطلق أعماله من رؤية ومن فلسفة معينة في التعامل مع الواقع ومع التجارب المختلفة التي يخوضها. فعندما تقام المعارض فليس هناك من يقف ويقدم الفنان أو يتحدث عن أعماله بصورة مهنية أو نقدية تشكيمياً، كما يلاحظ غالباً انعدام أي أثر نظري يرافق الأعمال ككتابات للفنانين يشرحون فيها عن

أعمالهم وما يطر حونه في هذه الأعمال من مواقف فكرية وجمالية أو نصوص للنقاد والمشرفين على إقامة المعرض ، يتطرقون فيها لتجارب الفنانين بالشرح والتوضيح حتى تكون مستساغة لدى الجمهور .

عن ذلك من امتيازات مادية ومعنوية ، في التمايز بينهم ، وتعزيز مكانة بعضهم ، و بالتالي أعمالهم والخط من مكانة آخرين وإهمال نتاجاتهم .

رابعاً : عدم وجود حركة نقدية تدعم الحركة التشكيلية وتساندها في بلادنا ، فكما ذكرنا في السابق ، ليس هناك نقاد فن أو مراجع فنية كالمتاحف ودور العرض وندرة الكتب والمجلات والمنشورات التي تعنى بالفن ، ما جعله «أي الفن» ينمو كعشبة برية دون أية عناية أو اهتمام ، ما جعل الناس ، بالإضافة لما سبق ، بعيدين عن المعنى الحقيقي للفن ، وأدى لتمسكهم بصورة مشوهة عن الفن وكاريكاتورية عن الفنان ، كانت وسائل الإعلام العربية أكثر من ساهم في نشرها وتعزيزها .

كما أنه لا يجوز أن نلقي باللوم كله على الجمهور وعدم وعيه بالفن أو تمسكه بأفكار خاطئة حول الموضوع دون أن نأخذ بعين الاعتبار أن الفنانين أنفسهم أو عدداً غير قليل منهم يحمل نفس الأفكار الخاطئة عن الفن ودور الفنان في الحياة ، فالأغلبية منهم لا يزال الفن يحتل مساحة ثانوية من حياتهم ، يمارسونه في أوقات الفراغ بسبب من عدم اقتناع كامل أو وجود أعمال أخرى يقتاتون منها ، حيث إنه يصعب العيش من وراء الفن ، خصوصاً في بلادنا ، كما يحتل الكسب المادي من بيع الأعمال مكاناً مهماً في إنتاج الفنانين ، ويؤثر بشكل مباشر على حجم وطبيعة الأعمال ، وكذلك المواضيع التي تتناولها ، ففي أحسن الأحوال لم يتعد الفن لدى عدد غير قليل من الفنانين ، وليس جميعهم كونه حرفة ومهارة يدوية «شاطر في الرسم» لدى قطاع كبير من الجمهور .

لم يتطور الفن بعد لدى فنانينا ليتحول إلى سلوك ونمط حياة أو موقف من الأشياء التي تحدث من حولهم وفي عالمهم . وهم إن حاولوا ذلك فإنهم يقعون في التقليد والسطحية .

ربما أكون متشائماً في تقييمي للفن والفنانين في بلادنا ، ولكن هذا ما أشعر به وما استنتجته من خلال التجربة ، وهو ما دفعتني إلى كتابة هذه السطور ، ففي المعرض الذي أقمته في قرية الحرف والفنون في تموز الماضي بعنوان «خبير عاجل» خير دليل على ما ورد في هذا المقال ، فبخلاف ما كتبت في

ثانياً : تحكم المجاملة في العلاقة بين الناس في مجتمعنا ، يشمل هذا ، أيضاً ، علاقة الفنانين بعضهم مع بعض وكذلك علاقة الجمهور بالفنانين ، فإذا تتقدت أعمال أحد الفنانين فسيأخذ المسألة كنفذ شخصي وانتقاص من قيمته أو مكانته ، وقد يؤدي ذلك إلى قطيعة بينك وبينه . فقليلاً ما يقبل الفنانون بصدر رحب الآراء التي قد لا تتفق مع ما يرغبون في سماعه حول أعمالهم . لذا فإنه عند إقامة المعارض فالكمل دون استثناء تقريباً يكيل المديح للفنان وأعماله بغض النظر إن كانت هذه الأعمال جيدة أم رديئة .

ثالثاً : قليلاً ما ترتبط أعمال الفنانين بالواقع ، وأقصد هنا الواقع اليومي والمعيش ، والفنان يعيش انفصاماً حاداً بين الموضوع أو المواضيع التي يعبر عنها وبين ما يعيشه من تجارب حية على مختلف الصعد . حتى عندما يعبر الفنانون عن الموضوع الفلسطيني ، وهو الأبرز بين موضوعات التعبير ، فإن الأعمال يغلب عليها المباشرة والتسطيح أو الاستغراق في تكرار مجموعة من الرموز والدلالات التي لا يكاد يخلو منها عمل فني فالكثير من الفنانين إنما يكررون أنفسهم أو بعضهم البعض ، وهذا ناتج من ناحية من انعدام الاضطلاع والانفتاح على العالم بسبب ظروف الاحتلال والحصار شبه المستمر ، وانعدام الفرص للسفر والوقوف على ما وصل إليه الفن من تطور ، بالإضافة إلى تقاعس الفنانين عن ذلك وعدم إعادة النظر بين الفينة والأخرى فيما ينتجون ، ومن ناحية أخرى ، فإن ارتباط الإنتاج الفني بما يعيشه الفلسطينيون من ظروف قمع واحتلال وتشريد وثورات وانتفاضات ، سواء كان ذلك من خلال أعمال تحت أو تحرض على المقاومة والنضال أو تصوير هول المعاناة أو التعبير عن البطولة والصمود ، جعل من نقد الأعمال الفنية أو التقليل من شأنها من ناحية فنية كأنه تشكيك في قيمة وشرعية ما تعبر عنه هذه الأعمال . كما ساهمت ولاءات الفنانين الحزبية ، وما ينتج

جداً من الجمهور الذي تفاعل بقوة مع الأعمال وتأثر بها، وعبر من خلال الحضور الواسع وكذلك من خلال التعليقات التي اتسمت بالصدق والعفوية وهنا أستشهد بما كتبه إحدى الزائرات في الكراس الخاص بالملاحظات «لا أعرف ماذا أكتب، لأن تجربتي الفنية ومعرفتي بالفن محدودة، ولكنني معجبة جداً بما قدمت في هذا المعرض. حقاً لقد أبدعت في كل لوحة أو عمل قدمته، لقد عبرت عن مشاعرك ومشاعرنا بطريقة أخرى مختلفة ورائعة».

إنني هنا أتحدث عن معرضي، وكان من الممكن أن أتحدث عن أي معرض آخر لأن الأمور نفسها التي تحدثت عنها تتكرر مع كل معرض.

هذا إن دل على شيء فهو يدل على أن هناك خللاً ما في التعامل مع الفن، خصوصاً من جانب الفنانين، وكذلك في تعاملهم مع الواقع، وهو ما تشهد عليه أعمال البعض ممن تفتقر تجاربهم إلى الصدق أو النضج، وهو ما يدعو الفنانين إلى إعادة النظر فيما ينتجون، وأن يتخلوا عن العادة في التعامل مع الفن أو في ممارستهم له، وهذا يتطلب بالتالي مساءلة النفس، ووضع معتقداتهم وما هم بصدد إنتاجه من أعمال محل مساءلة والاختبار المستمر، فمن دون ذلك لن تكون هناك استمرارية، ولن يكون هناك تجدد.

* فنان فلسطيني يقيم في غزة.

مطوية المعرض عن أعماله وطبيعة هذا المعرض ومحتواه، وما كنت ارمي من ورائه، كذلك في كلمة الافتتاح، هذا إضافة إلى ما كتبه عاطف أبو سيف حول المعرض من خلال مقالاته في صحيفة «الأيام» و«القدس العربي» الصادرة في لندن، فإن أحداً لم يتعرض لهذا المعرض بالنقد أو التحليل لا سلباً ولا إيجاباً، رغم أن المعرض يتطرق، ولأول مرة، في غزة إلى أشكال ووسائل جديدة من التعبير الفني، كالفيديو والتصوير الفوتوغرافي من خلال الشرائح الملونة، إلى جانب أعمال التركيب «Installation» وأعمال الرسم، وتناول موضوعات، هي في صلب الواقع الفلسطيني الحالي واليومي والمعيش. فمن حضر افتتاح المعرض من الفنانين لم يبد حتى رأيه فيما يرى واكتفوا بابتسامة وإيماءة من الرأس يراد بها القول أن المعرض جيد فلم يعلق أحد بتعابير فنية أو نقدية منطقية ومدروسة، لا سلباً ولا إيجاباً، هذا مع العلم أن بعض الفنانين اكتفى بجولة سريعة في المعرض مباشرة بعد قص الشريط، رغم صعوبة النظر إلى الأعمال في هذه اللحظة نظراً لأزدحام الناس، ولم يكلفوا أنفسهم ولم يدفعهم الفضول لزيارة المعرض مرة أخرى، وقضاء الوقت الكافي في تأمل الأعمال.

هناك الكثير من المثقفين والفنانين، وكذلك الجمهور العادي ممن لم يحضروا المعرض، وكانت حججهم في ذلك أنهم لم يعلموا أو ببساطة علموا، ولكنهم أحجموا عن الحضور، لأنه لم تصل إليهم دعوات شخصية للحضور، وهو أمر مثير للسخرية، فالأمر لا يتعلق بمناسبة خاصة من دعي إليها يحضر، ومن لم يدع لا يحضر، فالجميع مدعو للحضور خصوصاً وأن الافتتاح تم الإعلان عنه مسبقاً في الصحف حتى يتمكن من الحضور من لم تصل إليهم الدعوات نتيجة للسب أو عدم التمكن من توصيل الدعوة لهم، فالناس يقطعون في بلدان العالم الأخرى مئات، بل آلاف الكيلومترات أحياناً، لزيارة معرض، أو حضور حفل موسيقي.

هذا الموقف السلبي من الفنانين والمثقفين قابله موقف إيجابي